بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس الثامن

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين؛ نبيِّنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد...

الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» متفق عليه.

هذا الحديث الذي أورده المصنِّف رحمه الله في كتابه «الجامع»، حديث يتعلق بشكر نعمة الله تبارك وتعالىٰ والاعتراف بمنَّته وفضله علىٰ عبده، وأن يكون المؤمن دائمًا وأبدًا ملازِمًا لشُكر الله جل وعلا علىٰ نِعمه، والشُّكر أساسُ كل خير، وعليه مدار السَّعادة إذا كان قائمًا علىٰ أركانه وأصوله وأسسه بالقلب اعترافًا بنعمة الله جل وعلا وفضله، وباللسان حمدًا وثناءً وشكرًا لله علىٰ نعمه، وبالجوارح استعمالًا لها في طاعة الله جل وعلا وما يقرب إليه عز وجل، فالشكر مدار السعادة متىٰ ما كان العبد معترفًا بنعمة الله مستشعرًا فضل الله جل وعلا عليه شاكر لأنعم الله فإن الخير فيه أعظم والفلاح فيه يزيد بحسب حاله من الشكر.

وهذا الحديث يبين السبيل أو الوسيلة المناسبة ليبقىٰ العبد دائمًا شاكرًا لنعمة الله معترفًا بفضله ومنه وجوده وعطائه؛ بل إنه من أجمل ما يكون في تنمية الشكر، وتقويته، وزيادته، ودوامه.

وعليه ينبغي أن يعلم أن مدار هذا الحديث علىٰ تحقيق الشكر الذي هو رأس العبادة وأساس الفلاح والداعي إلىٰ بذل الخير والجود والعطاء والإقبال علىٰ الله سبحانه وتعالى، يقول ﷺ: **«انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»**.

«انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم»، وهذا لا يختص بشيء معين إما مال أو صحة أو عافية أو قوة أو رئاسة أو غيرها، يكون النظر نظر الإنسان إلىٰ من هو أسفل منه لا إلىٰ من هو فوقه، والسبب هو ما ذكر النبي ﷺ لئلا يزدري المؤمن نعمة الله تبارك وتعالىٰ عليه، وكل ما كان العبد علىٰ هذه الصفة ومستديمًا علىٰ هذه الطريقة ينظر إلىٰ من هو أسفل منه فإنه يحس حينئذ بعظيم بنعمة الله عليه وفضله ومنه سبحانه وتعالى، بخلاف ما إذا كان لا تنظر عينه ولا تطلع نفسه إلا إلىٰ من هو فوقه، فإن هذا مدعاة لازدراء النعمة وجحود

المنة، وعدم شكر الله ﷻ علىٰ فضله وعطائه.

فمثلًا في سكنىٰ الإنسان من متعه الله ﷻ بمسكن يأوي إليه ويقيم فيه أيًّا كان مسكنه لكي يستشعر نعمة الله عليه بهذا المسكن وفضله ﷻ عليه بهذا المأوىٰ الذي يأوي إليه ينظر إلىٰ من هو دونه لا ينظر إلىٰ من هو أعلىٰ منه وإنما ينظر إلىٰ من هو دونه سيجد في الناس من لا يجد مسكانًا يأويه.

إذا جاء إلىٰ المطعم والمشرب وقد من الله ﷻ عليه بما يقتات به ويطعمه ويغذي به بدنه أيًّا كان الطعام وإن قل، إذا نظر إلىٰ من هو دونه يجد أن في الناس في مجاعات وأمور صعبة جدًّا ولا يجدون ما يقتاتونة، فيشعر بنعمة الله تبارك عليه.

إذا كانت بنيته ضعيفة أو صحته عليلة لا ينظر إلىٰ الأقوياء والأصحاء، وإنما ينظر إلىٰ من هو دونه ممن صحته أقل وبنيته أضعف فإنه بهذا النظر يعرف نعمة الله عليه بأن لم يكن مثل هؤلاء الذين دونه.

ولهذا كل ما تذكر الإنسان في حال نفسه فيجد من هو أقل منه في الصحة والعافية والمسكن والمطعم؛ بل من يتمنَّىٰ أن يكون مثله، فإذا كان بهذه الصفة فإن هذا مدعاة.....

وانظر هذا في نواحي عملية في السنة كثيرة تدل علىٰ هذا الأصل العظيم منها ما ثبت أن النبيﷺ يقول عندما يأوي إلىٰ فراشه كان يقول: «الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وكفاني وأواني وكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي» فإذا كان الإنسان بهذا النظر ينظر إلىٰ من هو أقل منه يحمد الله وهو يشكره علىٰ نعمته؛ لكن إذا جاء إنسان إلىٰ فراشه لينام وبيته صغير وضيِّق وغير مكتمل الأثاث، وفيه بعض الأمور التي قد تقلق صاحب البيت، ثم عندما يأوي إلىٰ فراشه يبدأ ينظر ويتفكر في أصحاب القصور وأصحاب المساكن الفارهة وأصحاب البيوت المؤثثة أثاثًا فاخرًا وينظر في هذا وذاك يبقىٰ قلقا، وينسىٰ النعمة التي هو فيها والمنة التي منَّ الله ﷻ عليه بها، فيبقىٰ قلق وبالتالي لا يتحرك لسانه بالحمد والشكر والاعتراف بالنعمة، نعمة الله ﷻ التي أنعم الله سبحانه عليه.

بينما إذا توجه نظره إلىٰ من هو دونه فنظر إلىٰ من لا يجد مسكنًا يأوي إليه أو من مسكنه دونه ونظر أحوال من هو أقل منه، يشعر بنعمة عظيمة وعطية كبيرة؛ فيشكر الله ويحمده ﷻ، إذا كان في صحته بعض العلة والمرض، إذا نظر إلىٰ الأقوياء الأصحاء النشطاء، إذا نظر إليهم يضعف فيه جانب الشكر ويقل، بينما إذا نظر إلىٰ من هم أشد منه مرضًا وأشد منه ضعفًا فإنه يشعر بالنعمة وفضل الله ﷻ عليه.

إذن الحديث كله يدور علىٰ أن يكون دائمًا العبد مستشعرًا نعمة الله جل وعلا عليه شاكرًا له ﷻ علىٰ

نعمه ومن أعظم ما يوصلك إلىٰ ذلك أن تعمل بهذا التوجيه المبارك الذي وجّه إليه النبي ﷺ: «**انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم**» فأنت كلما كان نظرك إلىٰ من هو أسفل منك أحسست بالنعمة وشعرت بها ووجد عندك الشكر والاعتراف بفضل الله، بينما إذا نظرت إلىٰ من هو فوقك وكان نظرك إلىٰ من هو فوقك فإن هذا يضعف جانب الشكر؛ بل قد يزيد حال الإنسان إلىٰ التسخُّط وعدم الرضا والاعتراض علىٰ الله ﷻ وغير ذلك المسالك المُردية التي يجرُّ إليها نظر الإنسان إلىٰ من هو فوقه، فما أجملها من وصية وما أكمله من توجيه، وهو يدلُّ علىٰ كمال هذا الدين وعظيم فوائده علىٰ أهله، وأنه يجلب لأهله طمأنينة القلوب وراحة النفوس وسعادة الدنيا والآخرة، وقد قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له، وذلك لا يكون إلا للمؤمن» فالمؤمن دائمًا أحواله إلىٰ خير ما دام سائرًا في توجيهات هذه الشَّريعة المباركة.

وفي تمام الحديث علّل ﷺ «**ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» وهذا من كمال النصح وكمال البيان يذكر الحكم مع علته حتىٰ يعرف المقصود، لأنه لو قيل للإنسان انظر إلىٰ من هو أسفل منك ولا تنظر إلىٰ من هو فوقك لا يدري لماذا هذا النظر وما المقصد منه لكن هنا ذكر التعليل والغاية والمقصد، قال: «**ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» وهذا مكمل الخطورة وأساس البلاء إذا أزدرىٰ الإنسان نعمة الله يعني انتقصها وشعر أنها ليست بشيء وأن الله لم ينعم عليه وأن الله لم يتفضل عليه، فإذا نظر هذا النظر أزدرىٰ نعمة الله وانتقص نعمة الله ﷿، وإذا كان الإنسان بهذه الصفة مزدريًا نعمة الله فإن الخير عنه يترحل والشر إليه يقبل بخلاف من عرف نعمة الله وفضله ومنّته وعطيته، ولهذا قال العلماء عن الشكر وضده قالوا: "إن الشكر حافظ النِّعم وجالبها" يصفونه بالحافظ الجالب يحفظ النعمة الموجودة، ويجلب النعمة المفقودة، ولهذا ما جلبت النعم بمثل الشكر، وما حفظت بمثل الشكر وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] قد دلت الآية علىٰ أن النعمة إذا شكرت قرت، يعني بقت عند صاحبها وزادت عنده، أن النعمة إذا شكرت قرّت وإذا كفرت فرت، إذا لم يكن الإنسان شاكرًا لنعمة الله مزدريًا لها منتقصًا فإن النعمة منه تفر ولا تبقىٰ وأساس دوام النعم وتوالي المنن وبقاء الخير شكر المنعم ﷻ وحمده والثناء عليه والاعتراف بمنته وفضله ولا يصل الإنسان إلىٰ مقام الشكر إلا بالاهتداء بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، «**انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» وقد دل الحديث علىٰ أن ازدراء النعمة حرام، لا يزدري العبد نعمة الله وإن قلت: وإنما يكون

معترفًا بالفضل، عارفًا بالنعمة، وعارفًا بالمنة، ولا يزدري نعمة الله أيًّا كانت، ولهذا كان من هديه ﷺ ألا يعيب طعاما، جاء في الحديث أنه ما عاب طعامًا قط، ولكن إذا عُرض عليه ما لا يشتهي قال: «أجدني أعافه»، لكن أن يذم الطعام ويعيبه وينتقصه ويقول هذا ليس بشيء، وهذا ما فيه فائدة، وهذا مما حل الله عَزَّوَجَلَّ ومما هو نافع للعباد، هذا من ازدراء النعمة، وازدراء النعمة حرام، فالإنسان لا يزدري نعمة الله؛ بل يعرف نعمة الله عليه وفضله وعطيّته ومنته حتىٰ وإن قل الطعام، وعلىٰ الإنسان أيضًا أن يتذكّر أن نعمة الله عليه بالهداية لهذا الدين وكونه من أهل الإسلام هي أعظم النعم، فالإسلام هو أعظم نعمة، وأجل منه، وأكبر عطية، وهو فضل من الله عَزَّوَجَلَّ يتفضل به علىٰ من يشاء من عباده، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾[الحُجُرات]، فإذا تذكر هذه النعمة الكبيرة، والمنة العظيمة نعمة الإسلام والهداية لهذا الدين فإن هذا أيضًا يحرِّك في قلبه مزيد شكر الله وحمده وهو الثناء عليه والاعتراف بمنته وفضله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ودل الحديث أيضًا علىٰ أهمية الشكر وعظم مقامه وحمد الله تبارك وتعالىٰ علىٰ النعم، وكلّما تجددت بالعبد نعمة يشكر الله وهو يحمد الله ويعترف بقلبه بمنة الله عليه، فقد صح في الحديث أن ﷺ قال: «إن الله ليرضىٰ عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» فالله عَزَّوَجَلَّ يرضىٰ عن عبده بذلك ويحب من عبده ذلك أن يكون حامدًا شاكرًا، لكن متىٰ يكون من كان طاعمًا حامدًا؟ ومتىٰ يكون من يشرب حامدًا؟ إذا كان نظره إلىٰ من فوقه مثل من يجد ماءً باردًا طيبًا هنيئًا لكن يكون الكأس دون المستوىٰ الذي يريد، وماء طيب وإناء طيب؛ لكن مستواه دون الذي يريد فلان عنده كأس أحسن من هذا الكأس وأجود فينشغل قلبه بالكأس الأجود عن ماذا، عن شكر النعمة التي بين يديه وفي الناس من لا يجد ماء يرويه، فحمد الله وشكره واستحضار الحمد والشكر عند تجدد النعم هذا من أعظم المقامات، ومن أهم ما ينبغي علىٰ المؤمن أن يعتني به، والحديث يدل علىٰ ذلك.

والحديث فيه فوائد عظيمة وهدايات مباركة وتوجيهات رشيدة تدل علىٰ كمال هذا الدين، وكمال نصح النبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه، ودلالته لأمته لكل خير في الدنيا والآخرة.

الحديث العشرون

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ» متفق عليه.

ثم أورد المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث ثم أورد كذلك أحاديث عديدة بعده تتعلق بالطهارة والصلاة

وبعض الأحكام المتعلقة بالعبادات، وانتقىٰ من هذه الأحاديث، الأحاديث الجامعة المشتملة علىٰ بعض أصول الشريعة وكلياتها وجوامع كلم الرسول الكريم ﷺ، وبدأ بهذا الحديث الجامع قال ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضَّأ».

فالحديث يدل دلالة ظاهرة علىٰ اشتراط الطهارة في الصلاة، وأن الطهارة شرط من شروطها، فلا قبول للصلاة إلا إذا كان المصلِّي متطهرًا علىٰ ضوء دلالة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في صفة الطهارة وشروطها.

فالطهارة شرط في صحة الصلاة وبدونه لا تقبل الصلاة، ويدلُّ الحديث أيضًا أن من صلَّىٰ متطهرًا قُبلت صلاته، لكن الطهارة ليست الشرط الوحيد لقبول الصلاة، وإنما لقبول الصلاة شروطٌ أخرىٰ عديدة دلت عليها نصوص أخرىٰ، ويأتي كثيرًا في النصوص ذكر ترتُّب الحكم علىٰ بعض شروطه، لا أن هذا الشرط وحده كافيًا في القبول، وإنما لبيان أنه شرط في القبول.

فمثلًا في هذا الموضع ذكر أن النبي ﷺ أن من لم يتوضأ لم تقبل صلاته، فدلَّ الحديث علىٰ أن المتوضِّئ تقبل صلاته ليس بهذا الشرط فقط، وإنما أيضًا بالشروط الأخرىٰ لقبول الصلاة وهذا نستفيد منه فائدة مهمة وهي أنَّ معرفة الأحكام تتطلَّب جمع أحاديث الباب تتطلب جمع أحاديث الباب ليعرف من خلالها، وهذا الذي جعل الفقهاء فقهاء الإسلام يعتنون بكتابة المتون الفقهية التي تكتب فيها الأحكام علىٰ وجه التفصيل مع ذكر أدلتها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ علىٰ تفاوت بين أهل العلم في الأحكام والاستنباط وطريقة ذلك، لكن المراد من ذلك تسهيل الأحكام، فتجد مثلًا في كتب الأحكام يقولون شروط الصلاة كذا، وأركانها كذا، وواجباتها كذا، ثم يذكر الشرط واحدًا تلو الآخر بدليله، وهذا يدل علىٰ أن الإنسان يتطلب منه لمعرفة الحكم جمع الأحاديث الواردة في الباب، كذلك كتب أحاديث الأحكام مثل «العمدة» و«البلوغ» و«المحرر» وغيرها تعتني بجمع الأحاديث المتعلقة بنوع واحد أو باب واحد في موضع واحد حتىٰ يقف الإنسان علىٰ الأحاديث التي مثلًا تتعلق بشروط الصلاة في موضع واحد ثم الأركان والواجبات وهكذا.

قال: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ» والمراد بالوضوء الوضوء الشرعي الذي دل عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقوله: «إذا أحدث» أيضًا أيًا كان الحدث علىٰ ضوء دلالة النصوص سواء بخروج الخارج من السبيلين، أو بالنوم الذي يترتب عليه انتقضاء الوضوء أو مثلًا أكل لحم الجزور أو غير ذلك من الأمور التي تنقض الوضوء، فأي كان نوع الحدث فمن أحدث لا يقبل الله صلاته ما لم

يتوضأ، ويدل الحديث بعمومه أن من أحدث وصلىٰ ناسيًا أنه قد أحدث، ثم بعد صلاته تذكر، أنه قد أحدث فإن صلاته لا تقبل، ويجب عليه أن يعيدها لعموم قوله ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ**» فهذا ترك مأمورًا، ترك أمرًا أُمر به، وصلاته في قبولها متوقفة عليه، فإذا صلىٰ ناسيًا الحدث ثم عقب الصلاة تذكَّر فإن صلاته ليست لأن قبولها متوقِّفٌ علىٰ ارتفاع الحدث وحصول الطهارة وهذا لم يكن في صلاته.

الحديث الحادي والعشرون

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشرٌ من الفطرة، قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقصُّ الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» يعني الاستنجاء قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم.

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في ذكر سنن الفطرة، وصدَّرها عليه الصلاة والسلام بقوله: «**عشرٌ من الفطرة**» وقد مر معنا في أوائل هذا الكتاب عندما أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ حديث «أربع من كن فيه» أن هذا نهج نبويٌّ مبارك في التعليم، وأشرت هناك إلىٰ أن هذه الطريقة أضبط للعلم وأمكن للفائدة وأبعد عن النسيان والوقوع فيه.

فهنا قال: «**عشر من الفطرة**» فأعطاك في أول الحديث الرقم الذي عليه هذا الخصال وأنها عشر خصال، ولهذا لاحظ أحد الرواة لما لم يعد إلا تسع وهو يحفظ أول الحديث عشر أدرك أنه بقيت واحدة؛ لكن لو أن هذه الخصال ذكرت بدون عددها في الأول قد ينسىٰ الإنسان واحدة أو اثنتين ولا يتفطَّن أنه قد نسي لكن هنا «**عشر من الفطرة**» ثم وجد أنه لم يعد إلا تسع قال: «**نسيت العاشرة**» ولو أنه لم يتنبه لقال له من سمعه: بقيت واحدة من هذه العشر.

فهذه الطريقة نافعة في التعليم، ويستفاد ويستفيد منها المعلم في أول الدرس أن يذكر لطلابه عناصر الموضوع يقول الحديث اليوم أربع نقاط ستتحدث عن أربع نقاط، الأولىٰ كذا، والثانية كذا، والثالثة كذا، والرابعة كذا، ثم يبدأ يتحدث عن النقاط الأربع، ويجمع أذهان الطلاب من أول الأمر علىٰ ضبط المسائل أو الأحكام المطروحة علىٰ ضوء هذا التقديم والاهتداء بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال: «**عشر من الفطرة**» والفطرة هي: ما جبل الله عَزَّ وَجَلَّ عباده عليه، وما يولد عليه كل إنسان، كما صح

في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة» والفطرة: هي الدِّين الحنيف، دين الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الروم]، وليس المراد بالدين هنا أنَّ كل مولود يولد على الفطرة، أي: على الدِّين عالمًا بتفاصيله، وتفاصيل شرائعه وأحكامه، فهذا لا يُعرف إلا بواسطة المرسلين، وعن طريق الأنبياء الذين يبلِّغون للناس دين الله، ولهذا قال الله تعالى لرسوله.... دين الاستقامة ينشأ على هذه المعاني الفاضلة، قال الله تعالى: «خلقت عبادي حنفاء، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» فإذا وجد حوله من شياطين الإنس والجن وصرفوه عن هذه الفطرة التي فطره الله عليه.

ففطرة تتعلق بصلاح الإنسان، وانظر إلى معانيها في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] إلى آخر الآيات، فالله عَزَّوَجَلَّ فطر الناس على الإنابة، على التقوى، على الإخلاص، على محبة الخير، كل هذه المعاني فُطر الإنسان عليها في الجملة، لكن التفاصيل تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام تعرف من خلال ما جاء به المرسلون.

والنوع الثاني من الفطرة: ما يتعلق بطهارة ونظافة وكمال الظاهر، ظاهر الإنسان، فأيضًا جاء الإسلام بتكميل الإنسان، كما أنه جاء بتكميل الإنسان في باطنه وفُطر على ذلك وعلى العناية به، فإنه كذلك جاء بتكميل الإنسان في ظاهره وفُطر على ذلك وعلى العناية به، ثم يأتي بعد ذلك أيضًا إما البقاء على الفطرة أو الوقوع في الانحراف عنها بسبب الفتن والصواد والصوارف على تنوعها.

وبدأ عليه الصلاة والسلام هذه الخصال بقوله: **«قص الشارب»** وهذا أمرٌ فطر الناس عليه، ولو خلي الإنسان وفطرته ولم يأت من يحرفه عنها لكان بفطرته يستحسن قص الشارب وعدم بقائه طويلًا كفًّا نازلًا على فمه، فهذا أمر مستبشع في الفطر السليمة، وفطر الله عَزَّوَجَلَّ الناس على ذلك، لأن الشارب إذا طال ونزل على الفم أصبح أولًا: مجمع للأوساخ، وثانيًا: مؤذيًا للإنسان عند تناوله لطعامه أو لتناوله لشرابه، وأيضًا هيئته عليه تكون بشعة ومستقذرة وليست حسنة، فالله عَزَّوَجَلَّ فطر الناس على قصه، على قص الشارب، وأن يأخذ منه حتى تكون شفة الإنسان العليا كاملة بادية ظاهرة فيزيل ما ينزل على الشفة وكذلك يخفف من كثافته على أنفه حتى يتهيأ له سهولة تنظيف أنفه ويتهيأ له تطهيره لأنه سيأتي معنا أن من الطهارة الاستنشاق،

فإذا كان شارب الإنسان كثيفًا كبيرًا ممتدًا يعثر عليه ويضايقه في أداء هذه العبادة، فهذا أمر دعا إليه الإسلام واقتضته الفطرة، فطرة الله، وهذا من نعمة الله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده من عليهم بأن فطرهم علىٰ هذا الأمر الجميل المستحسن، وأيضًا دعاهم إليه بواسطة أنبيائه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه.

والخصلة الثانية: «**إعفاء اللحية**» والمراد بإعفائها: إرخاؤها وإسدالها وتركها وعدم قصها أو حلقها، إعفاء اللحية، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام ألفاظ في هذا المعنىٰ قال: «اعفوا اللحىٰ»، «وفروا اللحىٰ» «أسدلوا اللحىٰ»، جاء عنه ألفاظ كلّها تدل علىٰ معنىٰ واحد وهو أن تبقىٰ لحية الإنسان.

واللحية إبقاء الإنسان لها وعدم حلقها من الفطرة، مما فطر الله ﷻ عباده عليه، ومما ركز حسنه في قلوبهم منذ فطَرهم، فبقاء اللحية مستحسنًا في الفطر، وحلقها هو نوع من انحراف الإنسان عن ما فطر الله ﷻ عليه عباده من هذا الحُسن والجمال، واللِّحية جمال للرجل وزينة، ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها إذا أرادت أن تحلِف تقول: "والذي زيَّن الرجال باللِّحىٰ" لأن اللحية زينة وجمال للرجل وزينة وبهاء وحسن، والمؤمن لما يرىٰ وجهه بهذه الهيئة الحسنة يحمد الله، وقد جاء في الدعاء عن النبي ﷺ: «اللّٰهُمَّ كما زينت خلقي فزين خلقي»، «اللّٰهُمَّ كما زيَّنت خلقي» أي ظاهري، وهذا الدعاء ثابت عن النبي ﷺ؛ لكن قوله عند النظر في المرآة جاء في حديث في سنده كلام، أما الدعاء من حيث هو كدعاء هو ثابت عنه ﷺ، لكن من يحلق لحيته يغير الفطرة ويغير الجمال الذي فطره الله عز وجل علىٰ استحسانه ويرىٰ أن بقاء اللحية وهذا من تغير الفطرة، يرىٰ أن من بقاء اللحية ليس من الجمال، ولهذا يسمِّي بعضهم حلق اللحية: تحسين، يقولون: تحسين اللحية، وهو خلاف الحقيقة؛ لأن تحسينها ببقائها والمحافظة عليها وترجيلها والعناية بها؛ لأنها هي جمال الإنسان لكن هذا من التغير في المفاهيم وفيما رزق الله سبحانه عباده وفطرهم علىٰ استحسانه.

ومن عجيب حال بعض الناس أن تغير الفطرة فيه فيما يتعلق باللحية والشارب تغيرًا في الأمرين معًا، فالشارب يطيله إطالة فاحشة ويكون طويلًا من الجانبين الأيمن والأيسر وطويلًا أيضًا فوق الفم فينزل علىٰ فمه وبعض من تغيرت فطرهم في هذا الباب سواء في الدين أو بعض الجوانب التي هي من كمال الدين وحسنه وبهائه، عقدوا قبل سنوات في بعض الدول مسابقة بعنوان "أطول شارب في العالم" وهي في الحقيقة مسابقة في أطول انحراف في هذه الفطرة فعقدوا مسابقة وفاز أحد المنحرفين في فطرته بهذه المسابقة وأخذت معه مقابلات في الصحف وهو فخور بهذا الشارب الطويل الذي فاز به بلقب "أطول

شارب في العالم" وهو في الحقيقة أطول انحراف في هذه الفطرة في هذا العالم، ولكن العقول تتيه وتضيع ويحرف الشيطان الناس ويصدُّهم عن دين الله عَزَّوَجَلَّ عن الخير ثم طول في الشارب فاحش واللحية محلوقة يحلق اللحية ولا يكتفي بحلقها بل وينعمها، بعضهم لا يكتفي بتنعيمها بل ينتفها نتفًا، وبعضهم لا يكتفي بذلك بل يضع علىٰ خده بعض الأصباغ تشبُّهًا بالنساء، وهذا في غاية الخطورة إضافة إلىٰ ما فيه من الانحراف في الفطرة.

ثم هذا الذي ينحرف في فطرته فيطيل شاربه إطالة فاحشة فينزل الشارب علىٰ الفم، والله وبكل صراحة إنني أتعجب من حال هؤلاء، كيف يطعمون بعضهم ينزل شاربه علىٰ فمه وتتساءل وتقول هذا إذا أمسك ملعقة الإدام بيده وأراد أن يدخلها في فمه كيف يصنع تحتاج إلىٰ عملية أخرىٰ لإدخال ملعقة الإدام في فمه وهي رفع للشارب حتىٰ تدخل الملعقة ويشرب الإدام، وإذا أراد هذا الذي شاربه بهذه الصفة يقبل طفله الصغير يداعبه ثم قبله بهذا الشارب الخشن الفاحش النازل علىٰ الفم قبلة يريد بها مداعبته وكسب وده قال طفله: إما بلسانه أو بقلبه لا بارك الله في هذه القبلة ليتنا سلمنا منها، لأن القبلة هي نوع من الرحمة بالصغير واللطف به ومداعبته ومؤانسته، فإذ جاء هذا الشارب الطويل ثم وضعه علىٰ خد الطفل أو فمه وقبله تضايق من ذلك واستوحش من ذلك، ونشأ بفطرته كارهًا لهذا الأمر لأن هذا الصغير مفطور علىٰ كراهية هذا الأمر كما هو واضح في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «**عشر من الفطرة**».

وأذكِّر في هذا المقام بقول النبي ﷺ: «من عوفي فليحمد الله» فإذا من الله عليك فاحمد الله الذي سلمك لك فطرتك، ولم تزين لك نفسك مخالفة الفطرة فاحمد الله علىٰ هذه المنة، وإذا كان عندك نوع من التقصير والمخالفة والخطأ بسبب إما أصدقاء أو دعايات أو غير ذلك من الأمور التي تصرف عن الفطرة فعد إلىٰ الأمر مرة ثانية وتأمل في حقيقة الحسن وكماله وتذكر أن أكمل الناس وأنظفهم وأحسنهم هو رسولك عليه الصلاة والسلام وقد كان مُرخيًا لحيته، وفي القرآن ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ [طه:٩٤] فالأنبياء كانوا يعفون لحاهم، وحلق اللحية هو تغيُّر في الفطرة وإطالة الشارب أيضًا تغير في الفطرة، فالإنسان يتقي الله جل وعلا ويحافظ علىٰ دينه ويتذكَّر دائمًا أن دين الله عَزَّوَجَلَّ لا يأمره إلا بخير، ولا ينهاه إلا عن شر.

قال: «**قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك**» قال: «**والسواك**» وهذه هي الخصلة الثالثة من الخصال المذكورة في هذا الحديث، وهذا مما فطر الله تبارك وتعالىٰ عباده عليه العناية بنظافة الفم وتطهيره وتنقيته

وأن يبقىٰ فم الإنسان نظيفًا نقيًّا رائحته طيبة، ولذلك فطر بنظافة الفم بهذا العود الذي هو عود الأراك يسوك به فمه وينظف به أسنانه ليبقىٰ نظيفًا، والسواك مستحبٌّ في كل وقت ليس له وقت معين؛ لكنه يتأكد عند الوضوء وعند الصلاة ليكون أنقىٰ وأكثر نظافة وطهارة وحسنًا عندما يصلي ويقف في صلاته يتلو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالعناية بالسواك وبنظافة الفم هذا من الفطرة واستعمال معاجين الأسنان والفرش كل هذا من نظافة الفم ولا غلس به واستعماله لا بأس به وثبت نفعه لاستعماله لمن استعمله واعتنىٰ به، فهو من قبيل السواك لكن السواك أتم وما أرشد إليه النبي ﷺ أكمل واستعماله أيسر مع تيسر الأمور لكن السواك استعماله بلا منازعة أيسر، فيتيسير لك استعمال السواك في كل مقال وكل مكان بخلاف المعاجين، ولهذا العناية بالسواك والاهتمام به ولاسيما عند الوضوء، وعند الصلاة هذا كله من سنن الفطرة ومن محاسن هذا الدين.

وأنت عندما تستمع إلىٰ هذه الفطرة المباركة التي هي السواك والعناية بنظافة الفم تدرك الخطأ الكبير الذي يقع فيه المدخن، لأن المدخن عندما يتعاطىٰ التدخين يقوم بأمر خلاف السواك وعلىٰ الضد له، فالسواك ينقِّي الفم ويطهر الفم وينظف الفم، والدخان يلوِّث الفم ويلوث الشفة والأسنان ويسبِّب أمرض شديدة ومستأصلة ويُتلف الأموال ويهلك الصحة، ولهذا هو محرَّم لغره، ولإضاعته للمال، ولإهلاكه للصحة، ولتلويثه للفم، إلىٰ غير ذلك من المفاسد والأضرار التي تترتَّب علىٰ السواك، ثم ترىٰ من الناس من يحافظ علىٰ التدخين الملوث لفمه المغير لرائحة الفم برائحة الدخان المنتنة، ولا يفكر بالسواك الذي هو من الفطرة ونقاء للفم، وهو مطهرة للفم مرضاة للرب..... والسواك، وهو بتنقيته للفم بالسواك يكون فمه نظيفًا، فالإسلام ومن يتعاطىٰ الدخان يفعل أمرًا علىٰ خلاف ذلك.

ولهذا يُنصح كل من ابتلي بالدخان أن يلقي الدُّخان جانبًا ويطأه بقدميه ويبتدئ باستعمال السواك طاعة لله وطهارة لفهمه ولا يتعاطىٰ الدخان معصية لله وقذارة لفمه.

والعاقل بصير بمصلحة نفسه وفائدتها ونفعها، علىٰ أنك لو سألت كل مدخن اذكر لنا فائدة واحدة من الدخان لا يذكر أي فائدة أو لا يذكر فائدة تذكر، وإذا سألت هو نفسه ماذا تعرف عن مضار الدخان عدد لك العشرات، فأمر أنت تعرف مضراته وتدرك خطورته وسوء ضرره عليك ثم تستمر في تعاطيه وأنت تعرف أنه لا فائدة منه.

أحد المدخنين ممن عمره طويل جلس يومًا وقد كان يتعاطىٰ الدُّخان من صغره جلس يومًا، وقال أريد

أن أحسب كم من النقود صرفت في الدخان في حياتي، وبدأ يحسب حياة عمره حسابًا تقريبيًا متىٰ بدأ يدخن، وفي كل يوم كم يشرب، قيمة كذا كم، وأجرىٰ عملية حسابية فوجد أن ما صرفه في التدخين في حياته مائة ألف ريال تقريبًا صرفها في التدخين أو ما يقارب المائة ألف.

إذا وقفت مع هذا العدد أو ما هو أقل منه، وتذكرت قول النبي ﷺ: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع، وذكر منها عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه» هذه المبالغ الطائلة التي تصرف وتذهب إلىٰ مصانع هي في الأعم والأغلب لأعداء الدين، فيقوي أعداء الدين علىٰ مضرة نفسه وإتلاف ماله وإيذاء إخوانه علىٰ غير فائدة ومنفعة.

فهنا ينبغي للإنسان أن يقف مع الفطرة وأن يعيد حساباته ليبقىٰ علىٰ الفطرة السليمة محافظًا علىٰ نقاء فمه وطيبه وسلامته بعيدًا عن هذه الأمور التي ليس من ورائها إلا الضرر البيِّن والهلاك المحقق.

قال: «**واستنشاق الماء**» وهذا فيه أن من الفطرة تنقية الأنف مما يعلق فيه بسبب الأبخرة ودخول بعض الأتربة أو الغبار، فجاء الإسلام بتنظيفه، وتنظيفه بالاستنشاق، يستنشق الماء يأخذ الماء بكفِّه وراحة يده ثم يدفعه داخل أنفه إلىٰ أعلىٰ فيصيب الماء جوف أنفه داخل ثم تترطب المواد الجافة الملتصقة بجوانب الأنف وتتحلل وتنزل من الماء فيستنشق الماء ثم يدفع بأنفه ما فيه فتخرج الأمور العالقة به، فهذا من جمال الإسلام ما يدعو إليه من استنشاق الماء؛ بل ليس فقط جاء هذا في الإسلام علىٰ وجه الاستحسان فقط والاستحباب، وإنما جُعل فريضة استنشاق الماء فريضة وشرط في الطهارتين من الحدث الأصغر والأكبر، ولا تكون الطهارة إلا بالاستنشاق فهو فريضة في الطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر، ولهذا المسلم دائمًا يعتني بهذه النظافة وعنايته بها هي من فرائض الله عليه ليست فقط من المستحبات بل من فرائض الله عليه لأنه فرض من فرائض الوضوء ولا يكون الوضوء إلا به.

قال: «**وقص الأظافر**» وهذا أيضًا مما فطر الله تبارك وتعالىٰ عباده عليه تقليم أظافر اليد وأظافر القدم، وهذا من كمال هذا الدين؛ لأن إطالة الأظافر سواء أظافر القدم أو أظافر اليد هذا متنافي مع الفطرة السليمة التي فطر الله تبارك وتعالىٰ عباده عليها، وفي إطالة الأظافر التي هي خلاف الفطرة أضرار كثيرة تترتب علىٰ إطالة اظفر الإنسان، إطالته لاظفره وقصه حسن وجمال ونقاء ونظافة وحسن وبهاء للإنسان، وهذا مما يدل علىٰ كمال الدين في دعوته لتقليم الأظافر؛ بل إن النبي ﷺ وقَّت أربعين يعني لا يتجاوز أربعين يومًا إلا ويتعاهد أظافره بالقص وعدم قصِّها وتركها مسترسلة طويلة، هذا فيه كما ذكرنا أضرار منها أن ما تحت

أظافره سيكون مجمعًا للأوساخ والقاذورات، ولهذا سيأتي معنا، أن من سنن الفطرة غسل البراجم أي المطاوي التي تكون في البدن، وهذا من جمال الإسلام وحسنه، فمن يترك أظافره طويلة يجتمع تحتها وبين الظفر والأنامل أوساخ لا يمكن إخراجها، وإن أخرجت فإنها لا تخرج إلا بمشقة، ثم إذا تركت تكون مؤذية للإنسان في بدنه، وكثيرًا من الناس إذا طال أظفره أحيانًا يجرح نفسه بإظفره، وأحيانًا يضر عينه أو يضر الآخرين، إضافة إلىٰ البشاعة من تكون أظافره طوالا، وبعضهم لا يكتفي بإطالتها إطالة يسيرة؛ بل لا تستبعد أنهم أيضًا عقدوا مسابقة من جنس المسابقة الأولىٰ من هو أول ظفر في العالم، ثم يتبار هؤلاء تاركين أظافرهم مسترسلة متلوية وحشة قذرة طويلة ليفوزوا بمثل هذه الألقاب المنحطة، فكل هذا من الانحراف والانصراف عما فطر الله تبارك وتعالىٰ عباده عليه، بينما المسلم يعيش بفطرته يقلم أظافره... يباشر الأشياء يباشرها بيد نظيفة بخلاف تلك الأيدي الملوثة بأسباب إطالة الأظافر ومخالفة الفطرة.

فهذه سنة مباركة وهدي قويم.

ولعلي أطرح عليكم يعني تساؤلًا لا تجيبون عليه وإنما تتفكرون فيه من أظافرهم طوال متلوية من طولها أمامهم إذا تلاقوا كيف يسلمون علىٰ بعض، وكيف يأخذون الأشياء، وكيف يتناولونها، هذا أيضًا مما يوضح بشاعة حال من يخالف الفطرة ويخرج عن جمال هذه الشريعة وتوجيهاتها المباركة.

قال: «**وغسل البراجم**»: غسل البراجم: أي مطاوي البدن، والبدن يكون فيه أمكنة ينطوي عليها البدن أي تلتقي فيها الأطراف، ويكون جزء وينطوي عليها البدن، ويكون عادة أمثال هذه الأمكنة تجتمع فيها الأوساخ بسبب العرق وبسبب بعض الغبار أو نحو ذلك فجاء الإسلام بغسل ذلك، والإنسان عندما يتطهر ويتنظف ويغسل بدنه يعتني بهذه الأمكنة ينظِّف ما فيها ويزيل ما بقي فيها من قاذورات أو من أتربة أو من عرق أو نحو ذلك.

قال: «**ونتف الإبط**» ونتف الإبط هو من خصال الفطرة، وهو من كمال هذا الدِّين، والإبط معروف، والشعر الذي ينبت في الإبط بقائه يضايق الإنسان ويؤذيه، ويكون سببًا لاجتماع الوسخ والرائحة الكريهة المؤذية، فجاء الإسلام بالدعوة إلىٰ نتف الإبط فينتف، وأيضًا يُتعاهد كما مر كل أربعين، يتعاهد إبطه فيزيل ما فيه من شعر نظافة بدنه ونقائه، وبعدًا عن الروائح الكريهة التي تبقىٰ مع الإنسان بسبب هذا الشعر فهذا من جمال هذا الدين ومما فطر الله عَزَّوَجَلَّ عباده عليه.

قال: «**وحلق العانة**» والمراد بالعانة: الشعر الذي ينبت حول الذَّكر، فأيضًا حلقه من سنن الفطرة، وبقاء هذا الشعر أيضًا بقاء للقذر وبقاء أيضًا للرائحة الخبيثة المنتنة، فإزالته نظافة وطهارة ونقاء، وهذا مما فطر الله تبارك وتعالىٰ عباده عليه، وجميع هذه تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة كل ذلك مما ينبغي علىٰ المسلم أن يتعاهده كل أربعين يقوم بهذه النظافة وبهذا التطهر الذي دعا إليه الإسلام ورُكِز في الفطر.

قال: («**وانتقاص الماء**» **يعني الاستنجاء**)؛ قال: «**وانتقاص الماء**» وبينه قال: (**يعني الاستنجاء**)، والاستنجاء هو تنظيف السبيلين بعد قضاء الإنسان حاجته تنظيف ذلك بالماء طهارة للموضع، وهذه الطهارة لابد منها غسل السبيلين بالماء عقب الاستنجاء، والمراد منها إزالة الأثر الذي يبقىٰ في السبيلين أو في أحدهما عند وجود الخارج من السبيلين، أما إذا لم يكن هناك خارجًا من السبيلين فلا يلزم الإنسان عند تطهُّره أن يستنجي وإنما الاستنجاء متعلق بحصول الخارج، فإذا كان ثمة خارج من السبيلين أو من أحدهما فإن الاستنجاء واجب.

(**قال الراوي: ونسيت العاشر إلا أن تكون المضمضة**) ثم ذكر الخصلة العاشرة من خصال الفطرة وهي المضمضة، والمضمضة طهاة للفم وهي نظير الاستنشاق، وقد مر معنا، والمضمضة طهارة للفم وتنظيف له، وليست المضمضة من المستحبات؛ بل هي فريضة من فرائض الوضوء لا يتم الوضوء إلا بها.

فهذه عشرة خصال مباركة فيها نظافة الإنسان في ظاهره، وفيها نقاء لبدنه وطيب لرائحته وزكاء له، وهذا من كمال هذا الدين المبارك؛ دين الإسلام، ونعمة الله علينا بهذا الدين عظيمة فله الحمد أولًا وآخرًا، وله الشكر ظاهرًا وباطنًا.

ونسأله تبارك وتعالىٰ أن يشرح صدورنا للتمسك بخصال الفطرة المباركة، وبجميع خصال الدين، وأن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، إن ربي لسميع الدعاء وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ